

سَيِّدِي حَمَر

ذكريات الشيخ محمد أبو طير

تحرير
بلال محمد شالش



الفصل السادس

وجاء الفرج

وجاء الفرج

أبي رحها الله، في دمشق:

بعد أن انتهت أجواء عملية تبادل سنة 1983 بجميع من في معسكر أنصار في الجنوب اللبناني وهم بالآلاف، وهم بالأمس دخلوا المعتقلات، ولا أعرف ما حسابات المسؤولين عن ذلك. وكان الأجدر بالمفاوض الفلسطيني أن يهتم بمن مضى من عمره خمسة عشر عاماً في السجون، بدلاً من أن تضيع فرصتهم. ولولا الله، ومن ثم القدرة الفائقة التي أبدتها أحمد جبريل في التفاوض وعناده، لبقى هؤلاء حتى يومنا هذا في السجون، كما حصل للإخوة نائل البرغوثي¹ وفخري البرغوثي² وفؤاد الرازم الذين بقوا في سجنهم إلى أن خرجوا مؤخراً في صفقة وفاء الأحرار.

انتهت أجواء الإحباط التي وصلت بالمناضلين إلى أن يشتموا ياسر عرفات بعد أن كان مقدساً، وبلغت الصفاقة في العقوبات عند التنظيمات، أنه من يشتم الذات الإلهية لا يعاقب، ومن يشتم الثورة أو أبا عمار فعقوبته الجلد من ثلاثين إلى خمسين جلدة على الفور... وبلا نقاش.

انتهت أجواء الإحباط، وأقبلت أجواء التفاعل، وبرسائل متبادلة بيننا وبين الأخ حافظ الدلقموني. تبين لنا أن عند القيادة العامة جنود صهاينة، وتوجد مفاوضات حديثة، والحديث يدور عن صفقة جديدة، فكتبت برسالة إلى الأخ حافظ في دمشق، وفيها بعد التحية والسلام صورة عن أوضاعنا، و136 اسماً من إخواننا من أبناء الجماعات الإسلامية، ومن هو محسوب علينا وقريب منا من أبناء التنظيمات. خرجت الرسالة في كبسولة³ عن طريق الزيارة، مع السيدة الوالدة، وقلت لها على وجه السرعة تذهبين

¹ نائل صالح البرغوثي (1957-): ولد في قرية كوبر قرب رام الله. شارك في عملية قتل مستوطن صهيوني بصحبة الأسير المحرر فخري البرغوثي، وشقيقه عمر البرغوثي الذي خرج بصفقة تبادل سنة 1985. اعتقل في 1978/4/4 والتحق في السجن بحركة حماس. خرج في صفقة وفاء الأحرار في 2011/10/18.

² فخري عصفور البرغوثي (1954-): ولد في قرية كوبر قرب رام الله، وشارك في عملية قتل مستوطن صهيوني بصحبة الأسير المحرر نائل البرغوثي، والأسير المحرر عمر البرغوثي. اعتقل في 1978/6/23. متزوج، ولديه شادي وهادي في سجون الاحتلال. خرج في صفقة وفاء الأحرار في 2011/10/18.

³ رسالة الكبسولة: أسلوب للتواصل مع الأسرى، والكبسولة الوعاء البلاستيكي الذي يوضع فيه الدواء ويكون رقيقاً ومحكم الإغلاق، ولا يتم هضمه إلا في المعدة، ورسائل الكبسولة تكون محكمة الإغلاق وصغيرة الحجم بحيث يلبع الأسير المحرر أكبر عدد ممكن منها ولحظة الإفراج عنها يخرجها من دون أن يصيبها أي ضرر. انظر: فهد أبو الحاج، مرجع سابق، ص 60. [المحرر]

بهذه الرسالة إلى الأخ حافظ في دمشق وتقرئين عليه السلام، وأن يعتمد ما فيها، وعلى عجل. انطلقت الوالدة من القدس إلى عمّان، ومن عمّان إلى دمشق، وسلمت الرسالة للأخ حافظ، وأقامت بينهم، ثم ذهبت بزيارة للجنوب اللبناني لمخيم الرشيدية، في زيارة لأهل الأخ سعيد قاسم وعائلته. ورجعت فيما بعد سالمة غانمة، والحمد لله، وطمانتنا عن وصول الرسالة وقد روستها بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى مَنْ يهيمه الأمر، إلى مَنْ عاش حالة السجن والقيود، ودفع ضريبة الأعصاب من أيامه، إليك أخي حافظ.. وإلى مَنْ هو قائم على هذه الصفقة بجدارة.. إلى الأخ المجاهد أبو جهاد أحمد جبريل، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،

رسالة من وراء القضبان وقد انقطعت الأسباب إلا من الله، ولا أبلغ مما قاله الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: "لئن أفك أسيراً من المسلمين، أحب إلي من جزيرة العرب"....

وذكرت له عن رسائل التنظيمات إلى أبي جهاد الوزير، بأن لا تشملنا رحمته ويشاء الله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁴. وانتهت الرسالة بالأسماء.

انهيار المقاطعة تهاوماً:

لما لاح في الأفق أن السجون على أبواب صفقة جديدة، تقرب إلينا أبناء التنظيمات، خاصة لما علموا أن بيننا وبين الإخوة في القيادة العامة تواصل، وأنهم يفاوضون على ثلاثة جنود، فمنهم من طلب منا أن يدرج اسمه في هذه الصفقة، وكثير منهم كانوا يريدون الأخبار عن قرب الصفقة... ومتى هي؟ وكنا واقعيين، ومن العيب أن نستثمر عواطف الناس، فالحقيقة ولا غير، وليس لدينا ما نخسره، وقلت يا سبحان الله!! ما أضعف الإنسان، بالأمس بعثوا بالمئات من الرسائل لأبي جهاد الوزير، ألا تدرج أسماؤنا في أي صفقة تبادل، واليوم يطلبون ممن مثلهم في الأسر أن تدرج أسماؤهم، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾⁵، فهل من يعتبر من تقلبات الزمان؟ وكما قال الشاعر:

حقير فصال تيهاً وعريد

نسي الطين ساعة أنه طين

⁴ القرآن الكريم، سورة الأعراف، آية 56.

⁵ القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 140.

الانتقال إلى سجن نفحة:

في تاريخ كذا من شهر تشرين الأول/أكتوبر 1984، نودي اسمي للرحيل إلى نفحة، السجن الصحراوي الذي يعلو هضبة من جبال النقب. وحزمت أمتعتي، وودعت إخواني... وودعوني، وقلت عسى أن يكون خيراً، فمدير السجن الذي نقلني في المرة الأولى إلى سجن بئر السبع هو نفسه الذي نقلني ثانيةً إلى سجن نفحة، حيث ضاق ذرعاً بوجودي عنده. وصلت إلى نفحة مع العشاء بالضبط، في سيارة خاصة تأتي بالخبز لثلاثة أيام، كانت المواصلات صعبة وعدد السجناء لا يتجاوز الثمانين.

سجن نفحة مقصور على أبناء الفصائل، وأنا غير مرحب بي عندهم، وما رحب بي إلا شاب من القدس اسمه محمد عيسى النتشة، وهو الوحيد من وقف على الباب وقال: أهلاً وسهلاً نورت بك نفحة، وإذا بآخر، عرفته فيما بعد يقال له: أبو عاشور من غزة، يقول: الله لا يجيب الساعة التي جاءت بك.

دخلت غرفة من غرف فتح، وكنت أعرف معظم مَنْ في السجن؛ لأنهم مروا عليّ، وكثير منهم قدماء منهم عمر القاسم، الذي التقيته في الأيام الأولى من السجن، والأخ عبد الله حجاج من غزة، والأخ جمال الكتري شقيق أبي العز الكتري من غزة.

انسجمت مع شباب الغرفة، وبقي الاحترام سيد الموقف. والحق أنهم ما قصرُوا معي أبداً، لكن الجو العام يقول: لا توجد جماعة إسلامية هنا، وفي نفسي أقول: أنا جماعة إسلامية، وفي بالي قول الصحابي الجليل، عبد الله بن مسعود: "الجماعة أن تكون على حق، ولو كنت وحدك". وبالطبع لم تخلُ الأيام من نكد السجن، خاصة الجو البارد الذي تتميز به نفحة.

وفي المنام ذات مرة رأيت الإمام حسن البنا يصعد جبل (أبو غنيم)، عندنا في القدس، وإلى الجنوب من قرينتنا، وأنا من ورائه، والتفت إليّ وقال: "تعال أعلمك"، وانتهت الرؤيا عند هذا الموقف.

كان الكتاب هو صاحب على الدوام، هو خير جليس وخير أنيس كذلك. وكنت أخرج للرياضة يومياً، وفي صباح يوم كأنه الزمهرير من شدة البرد، لم يخرج أحد من الأسرى للرياضة سواي، فخرجت وعليّ "بنطلونان"، وركضت وحدي لأكثر من ساعتين؛ لأن السجناء هو الآخر لم يأت ليُفتح لي الغرفة بسبب البرد. وهذا من أيام نفحة.

في أوائل سنة 1985 وصل إلى نفحة فضيلة الشيخ أحمد ياسين، بعد أن انتهى من التحقيق في سجن عسقلان. ونفحة جوها بارد، والشيخ مريض يعاني من الربو، ولا أظنه كان ينام الليل من شدة البرد. استقبلته وعشنا معاً أسبوعاً؛ لأن وضعه الصحي لا يسمح له أن يبقى في نفحة، وانتقل إلى سجن عسقلان، وتحسنت أموره هناك، وقام الإخوة على خدمته. وكنت قد ذكرت أن الأخوين حمزة كنفوش من مخيم الشاطئ، وهو من قرية بشيت قضاء الرملة، والأخ محمد درويش (أبو داود) رحمه الله، وهو من العيسوية في مدينة القدس...أنهما تولياً أمر الشيخ.

في نفحة، شكا تنظيم فتح للشيخ أحمد ياسين حالي معهم على صعيد الكانتينا. ويشهد الله أن أموال قارون لا تستخفني، ولا كما يقولون: "ولا تعبني عيني"، ولكن أن يتصرفوا بمستحقات لي كأنهم أوصياء عليّ، فهذا لن يكون ما حييت، عن طيب خاطر لا أريد شيئاً. ولما ضاقت الحال من قبل ونحن في سجن الخليل عام 1993/1992، قبل أن يأتي أوسلو بأمواله، كنت أطلب من الإخوة في مدينة الخليل، كي يتبرعوا للإخوة في تنظيم فتح، لحالة الإفلاس التي وصلت إليها أحوال التنظيمات قبل أوسلو، وحصل أن تبرعوا بثلاثة آلاف أو أربعة آلاف شيكل (نحو 1,511-1,133 دولار) لأسرى سجن الخليل من فتح⁶.

قال لي الشيخ أحمد ياسين، رحمه الله، لم لا تلتزم معهم في مصروفات الكانتينا؟ فقلت: أيها الشيخ، أنا أدري بهؤلاء منك؟ ولي تجربة معهم، فلا تقلق، وتفهم الشيخ ذلك. وأقول: ولربما قادة التنظيمات في نفحة دبروا أمراً بحجة المرض، كأن يتخلصوا من وجود الشيخ بينهم، فكما يقال —وأنا تلميذ عند الشيخ— "إحنا من شيخ مش خالصين، فكيف بشيخين؟".

هفوض صفقة الأسرى:

قبل عملية التبادل سنة 1985 بشهر أو يزيد كانت السجون تعيش حالة تفاؤل على صعيد هذه الصفقة، كان المذيع، وخاصة إذاعة مونت كارلو، يتحدث عن اقتراب موعد الصفقة، وأن الخروج من السجن بات وشيكاً، والحرية على الأبواب. وأي خبر عن الصفقة يشيع بين الناس كالنار في الهشيم. وقبل الصفقة بـ 20 يوماً، وعلى التحديد

⁶ تم احتساب سعر صرف الدولار مقابل الشيكل الإسرائيلي وفق معطيات بنك "إسرائيل" المركزي كمعدل للسنتين 1992-1993 الذي يساوي 2.6468.

في الأول من أيار/ مايو ويوم الجمعة، كنت جالساً في ساحة السجن، وأستعد لأمرين، لزيارة الأهل، ولصلاة الجمعة، وإذا بأمر ثالث على الأبواب، يذهب ويتجاوز الأمرين السابقين، إذ جاءت إدارة السجن تطلب مني أن أحزم أمتعتي بسرعة؛ لأن ناقلة تنتظرني في طريقها إلى عسقلان. وفعلاً، قمت على وجه السرعة بحزم أمتعتي، وخرجت من السجن، وإذا بشاب من الجبهة الشعبية اسمه سليم نسيبة، قادم من عسقلان، ويقول لي: يا شيخ لا تتركب معهم، وهو يعني الشرطة العسكرية الإسرائيلية؛ لأنها هي المسؤولة عن النقلات، التي هي ليست من صلاحيات مصلحة السجون، بل هذا شأن سلطات عليا، ومن صلاحيات جهاز أعلى من مصلحة السجون. المهم أن سليم هذا أتوا به من عسقلان؛ لأنه عضو لجنة تدقيق، ومفوض من الخارج، من القيادة العامة عن سجن نفحة، لتحديد أسماء الأسرى من أجل إتمام الصفقة، فاعترض على قسوة تعاملهم... فضربوه... أما أنا فخرجت... وفي طريقي إلى "البوسطة"، سألني ضابط أمن السجن، ونائب مدير السجن: إلى أين أنت ذاهب يا شيخ؟ فأجبت: إلى البيت إن شاء الله، وذلك من باب التفاؤل، وهما على علم بالذي يجري، فبدت عليهما الدهشة، وودعاني باحترام. وذكرت لهما أن الوالدة هناك على بوابة السجن، جاءت للزيارة، وطلبت أن أراها، ولو لخمس دقائق حتى أودعها. وفعلاً تحدثنا مع الشرطة العسكرية، وأجلستني الشرطة العسكرية أرضاً داخل السيارة، وأنا مقيد اليدين من الخلف، وكذلك القدمين، وجاءتني أمي على هذه الحال، فقلت لها: لا تبالي، هو مشوار الطريق إلى عسقلان، وإن شاء الله فرج الله قريب، وأخذت الأمور ببساطة، "وخدها معود على اللطيم".

ودعت أمي وودعتني، وما أكثر الوداع! وانطلقت بي سيارة الشرطة، وقد وضعوا كيساً غطى وجهي ورأسي، كما هي الحال في التحقيق، وبقيت على هذه الحال، إلى أن وصلت إلى ساحة عسقلان مع صلاة الجمعة. فدخلت والخطيب يخطب للجمعة، وانتبه الناس إلى قدومي، مما شوش على الخطيب. وحضرت الخطبة والصلاة، وفرح الأسرى بهذه العودة، وصافحت الجميع... جميع من في الساحة.

وبعد ساعة من وصولي استقبلني مدير السجن الذي طردني مرتين من قبل، وسلم علي ودعاني إلى مكتبة السجن، فسألته: ما الأمر؟ فقال الآن تعرف، ولما دخلنا إلى مكتبة السجن، وكانت من قبل محظورة علينا، فرحب بي عاملاً المكتبة، وهما غازي أبو جياب من الشعبية ورمضان النجار من فتح... وجلستُ والمدير، وبحضورهما قال لي: توجد

صفقة تبادل أسرى، فقلت: وما يعنيني؟ فقال: أنت المعني، وأنت على رأس اللجان كلها في السجون، وبتفويض من الصليب الأحمر الدولي، الذي فوضه أحمد جبريل لعمل هذه اللجان. قلت للمدير: وما المطلوب؟ قال: فرز الناس. وكان حظّ عسقلان عظيمًا في هذه الصفقة. قلت له إذن: قل للسجانين أن يسهلوا حركتي بين الأقسام. وكان ذلك، وفرزنا الأسماء، ولجنة معي من الإخوة منهم سعيد قاسم، واجتمعنا مع مدير الصليب الأحمر الدولي لأكثر من أسبوعين، ونحن ندقق في أسماء من ورد اسمه في صفقة التبادل؛ ولأن دولة الاحتلال فيما سبق بدلت أسماء، وتحفظت على أسماء، ومن الأسرى من وصل إلى الطائرة في مطار اللد، ثمّ رجع إلى السجن ثانية.

وفي هذه الأيام العشرين، التي سبقت يوم الإفراج، عاش السجن على أعصابه... ومن الناس من تأخر اسمه من إدارة السجن عن قصد، وذلك لعب بالأعصاب مثل الأخ أحمد مهنا، وكذلك رفيق من الجبهة الشعبية اسمه شحادة، وما إن حضرت أسماؤهم كادوا يطرون من الفرح، وانتفض أحدهم كأنّ ثعباناً لدغه لما سمع الخبر، وقلت في نفسي: مسكين ابن آدم... سنون من التعب والتعبئة بأنه لا إله والحياة مادة، وإذا بلحظة تنتصر الفطرة لخالفها.

كنت قد كتبت بياناً اعتقالياً لجميع من في السجن حول الصفقة وظروفها، وروسته بالبسملة والثناء على الله، والصلاة على نبيه ﷺ ولم يكن معهوداً لبيان اعتقالي دون هيئة اعتقالية، وأن يُروس بالبسملة. وجاء فيه الحث على الصبر في الحالتين، للذين وردت أسماؤهم في الصفقة، والذين لم ترد أسماؤهم، وكل من ورد اسمه في هذه الصفقة من القدامى، ومن ذوي الأحكام العالية، وقلنا: على الناس أن يضبطوا أعصابهم، وأن يكثروا من الذكر، وأن من فاته الأمر، فلن يفوته الأجر، ولن تطول عليه الحال — إن شاء الله — حيث إن شريحة من الأسرى أحكامهم عالية، لم ترد أسماؤهم في الصفقة وتحفظت عليهم دولة الاحتلال، ومنهم من تمّ ذكر اسمه في الصفقة، ولم تصدر الأحكام ضدّهم بعد. وفي السياق ذكرت قصة عن عبد الله بن حذافة السهمي لما قبل عمر بن الخطاب رأسه وقال: حقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله، في قصة أسره عند الروم وتحرير إخوانه، واستشهدت بقول آخر لسيدنا عمر رضي الله عنه: "لأنّ أفك أسيراً من المسلمين، أحب إلي من جزيرة العرب وقلت حديثاً عن نبينا، ﷺ: "من لم يشكر الناس لا يشكر الله"⁷.

⁷ لنص الحديث وتخريجه انظر: صحيح الترغيب والترهيب للمنذري، الحديث رقم 976. [المحرر]

وخطبت آخر جمعة بسورة "العصر"، وقلت: إنها العهد والميثاق، واستبشر الناس خيراً أنه قد اقترب يوم الفكك. وقلت إن التواصي بالحق يحتاج إلى قوة، فالحق الذي لا تحميه قوة ضائع، وإن التواصي بالصبر لا ينقطع حبله حتى الممات، وهذه رحلتنا من على هذه الأرض كما قال الشاعر:

مشيناها خطأ كتبت علينا ومن كتبت عليه خطأ مشاها

وذكرت قول الشاعر في أقدارنا:

إذا الله لم يحرسك مما تخافه فلا السيف قطاع ولا الدرع مانع

هذه هي الطريق، فلا بد من عصبية تعلم أنه لا راحة حتى ولو نفذ الصبر، وما للصبر من نفاذ، والنفوس المؤمنة تتواضع في نمائها، كما هي السنابل قبل حصادها.

مع الشيخ أحمد ياسين:

جمعتني ساحة عسقلان ثانياً بالشيخ، بعد أن افترقنا يوم رحيله من سجن نفحة، وكان الشيخ ذا مزاج رائق، وهدوء تملوه ابتسامة، جلسنا على انفراد، والشيخ حجة في التربية، حتى وإن لم يتكلم، وقال لي: الآن جاء دورنا، في هذا الصراع. وحدثني عن الأسباب التي أدت إلى إصابته بالشلل، وقال: كنت بعد الهجرة أمارس الرياضة بالقرب من شاطئ الهجرة، الذي انتحل معسكرنا اسمه، وعبد الله صيام معي يريد أن يلقي بي أرضاً، وهو ممسك برفقتي. فشعرت بشيء كأنه انقطع مني، ورجعت إلى البيت لا تحملني قدماي... وأنا موجوع لا أستطيع العودة إلى ما كنت عليه. وحالة اللجوء في المخيمات التي يصاحبها الفقر... حالت دون العلاج أو متابعة الأمر، والأطباء والمراكز الصحية على ندرة في تلك الأيام، وتطور المرض مع الأيام، والعائلة عاجزة أمام هذه الحالة. وعبد الله صيام هذا هو بطل المقاومة في خلدة جنوب بيروت، وهي أرض مكشوفة حاول العدو الإسرائيلي محاولات عدة، لإنزال قواته من الجو هناك، ففشلت كل المحاولات، إلى أن استشهد العقيد عبد الله ورفاقه في هذه الحرب سنة 1982.

وحدثني الشيخ، رحمه الله، عن الدكتور إسماعيل الخطيب، رحمه الله، وقصة التهديدات التي مارسها أبو علي شاهين ضده، ومن ورائها كان يريد احتواء الجامعة الإسلامية، والسيطرة عليها. والدكتور إسماعيل كان محاضراً للغة العربية في

الجامعة الإسلامية، ومن قبل كانت محاولات عدة للسيطرة على الجامعة، وجميعها باءت بالفشل، حتى قلنا: لو لم يبق إلا ”البواب“ في الجامعة لجعلناه رئيسها.

هذه المحاولات انتهت باستشهاد الدكتور إسماعيل، وكان أبو علي شاهين (ومن ورائه قيادة المنظمة) قد أرسل إليه تهديدات في رسالتين، مع كل رسالة رصاصة، وكان المطلوب أن يترك الجامعة وموقعه فيها. فعرض الدكتور إسماعيل رسائل التهديد على الشيخ أحمد ياسين، فقال له الشيخ: هو تهديد أكثر منه تنفيذ، وهل هذا يخيفك؟ فأجاب الدكتور ”لا“، وقال: الأعمار بيد الله.

ولما فشلت تهديدات أبي علي شاهين، بعث إلى قيادته يستشيرهم بهذا الشأن، فجاءه منها قرار الاغتيال. وقُتل الدكتور إسماعيل وهو يفتح باب سيارته لأطفاله وزوجته، وعلى أعينهم وقعت الفجيعة.

كان أبو عمار، ولو بالقوة، حريصاً على أن يغير اسم الجامعة إلى جامعة الإمام الشافعي حتى تخرج من تحت عباءة المجمع الإسلامي. كان لا يريد للمجمع الإسلامي أن يتولاها، بل يريد للشيخ الأزهر في غزة محمد عواد، أن يرأسها.

أما مَنْ قتل الدكتور إسماعيل بيده، فقد احتوته زنازين عسقلان، بعد أن هلوس في السجن، وطارده إسماعيل في منامه.

وحدثني الشيخ عن ظروف اعتقالهم، وعن تخطيطهم، والمساحة التي يريدونها من وراء هذا التخطيط، وأنها معركتنا إلى أن ينحسم الصراع لصالحنا. وحدثني عن الدكتور إبراهيم المقادمة في موقف له في المحكمة العسكرية، يوم أن هتف ضدّ الصهاينة، والقرآن في يده يلوح به، ويشاء الله كذلك للشيخ أن تأتيه الشهادة ولو بعد حين من حيث لا يحتسب. واستشهد الدكتور إسماعيل الخطيب وإبراهيم المقادمة وصالح شحادة⁸،

⁸ صلاح مصطفى شحادة (1952-2002): ولد في مخيم الشاطئ لأسرة تعود أصولها لمدينة يافا. درس الخدمة الاجتماعية في الإسكندرية، وعمل في الجامعة الإسلامية في غزة. اعتقل سنة 1984 للاشتباه بنشاطه المعادي للاحتلال الصهيوني. شغل عضوية المكتب الإداري العام للإخوان المسلمين في قطاع غزة. اعتقل مرة ثانية لمسؤوليته عن الجهاز العسكري الأول لحركة حماس، ”المجاهدون الفلسطينيون“، وأُفرج عنه سنة 2000. مع اندلاع الانتفاضة الثانية أعاد إحياء كتاب الشهيد عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس). اغتيل بقصف جوي استهدف الحي الذي يسكنه في 2002/7/22، وسقط أكثر من 150 مواطناً بين شهيد وجريح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾⁹، لكل من تأمر على هذه الدعوة، ودم إسماعيل الخطيب لعنة تطارد الظلمة، والله يمهل ولا يمهل.

مع هدِير الصليب الأَحرَم الدولي ونهاية الصفقة:

جلست مع مدير الصليب الأحمر من قبل، ولكن هذه المرة جاءني، وفي جعبته الأخبار الأخيرة حول الصفقة، وأن الترتيبات على قدم وساق، وأن "إسرائيل" تحفظت على 36 من الأسرى. وفي النهاية قبل الطرفان بالفيديو: 18 للقيادة العامة، و18 تحفظت عليهم "إسرائيل"، وأن في الصفقة عملية تخيير، فمن أراد أن يبقى في البلاد فله ذلك، ومن أراد الرحيل إلى الخارج فله ذلك... وبعدها قلنا للناس، بل كان منا التشجيع أن يعودوا إلى بيوتهم، وإلى أهاليهم، وكان ذلك والحمد لله.

وفي اليوم الذي سبق تحريرنا... وقد جاءنا الصليب الأحمر بملابس من عنده، كنا في غرفة الزيارة ننتظر خروجنا إلى الحافلات، وإذا بقائد المنطقة الوسطى يدخل علينا، وشخصناه، وقلنا هذا عمрам متسناع Amram Mitzna. أما أهل الداخل الأخضر والخليل وغزة، فلم يخرجوا معنا، وبقوا في عسقلان إلى أن جاءتهم الحافلات في اليوم الثاني، وانطلقت بهم إلى ديارهم. وأما نحن أبناء القدس وبيت لحم والشمال كله، فذهبت بنا الحافلات إلى سجن جنيد، ونزلنا مع الغروب. وفي اليوم الثاني، وهو يوم الإثنين الأول من رمضان، والذي يوافق 1985/5/20، نوينا الصيام، وبقينا بعد مبيت ليلة في سجن جنيد، بقينا في الساحة ننتظر أن تأتي الأوامر بركوب الحافلات. وحصل أن الاحتلال كان يريد من الأخوين خالد طنطش وفضل طهبوب المغادرة خارج فلسطين، فطلبت من الصليب الأحمر أن يتحمل المسؤولية، وقلت للمسؤول الإسرائيلي، إن الصفقة ستتوقف ما لم تنته مشكلة الأخوين، ولساعتين والإجراءات متوقفة، حتى سارت الأمور، وخرج الأخوان من السجن إلى بيتيهما في القدس.

بقينا حتى المساء في الساحة الخارجية في سجن جنيد، والحافلات تنتظرنا؛ لأن الاحتلال مع خروج الدفعة الأولى من الأسرى، واستقبال الناس للحافلات التي تقلهم غير الطريق، ولأن المستوطنين اعترضوا الحافلات على طريق نابلس. فكان حظ من تأخر أن سارت بنا الحافلات إلى الغرب من سجن جنيد... ثم إلى عزون، والداخل الفلسطيني

⁹ القرآن الكريم، سورة الفجر، آية 14.

وإلى الرملة، ثم إلى دير أبان (والتي تسمى اليوم "بيت شيمش")، وجئنا قرية الخضر من الغرب، والدهيشة وبيت لحم من الجنوب، في رحلة طويلة، فظنَّ الوالد أنني خرجت مع الذين غادروا إلى سويسرا في الطائرات. وقد سمعت وأنا في سجن جنيد نهراً إذاعة مونت كارلو تقول: إن الشيخ محمد أبو طير توجه إلى سويسرا على متن طائرة الأسرى، ولم يكن هذا صحيحاً؛ لأنني موجود في جنيد، ولأن المسؤولية فرضت عليّ التأخر حتى بعد انتهاء العملية، وقلت في نفسي: إن الوالد سمع ذلك؛ لأنه يتابع الأخبار أولاً بأول. وفعلاً فقد تأخرت عن الجميع؛ لأنني الوحيد في الحافلة التي تقل الأسيرات المحررات، والواجب يقتضي القيام على هذا الأمر، إلى حين يصلن إلى بيوتهن. ونظرت إلى حالي في ساحة المهدي في بيت لحم، وإذا أنا وحدي... بعد أن مضى كلُّ من الأسرى المحررين إلى بيته... وإلى ذويه وأهله. ولأول مرة ترى الشعب يفرح بعودة أبنائه بهذه الجموع، وشدني مخيم الدهيشة، وهو يخرج عن بكرة أبيه، وقد أوصد الشارع دون الحافلات التي كنا فيها. ولولا الجيش، الذي يرافق حافلاتنا منذ أن خرجنا من سجن جنيد، ما تمكنت الحافلات من الوصول إلى ساحة المهدي محطتنا الأخيرة. لقد خرج الشعب يهتف لهذا العرس، وفرحت فلسطين بعودة أبنائها. هذا العرس الذي أعطى شعبنا دماً جديداً، وعمرَ بيوتاً، وفرجاً كُرباً، ووسع على الناس حياتهم، وارتاحت العائلات من همٍّ يطاردها من سجن إلى سجن، في زيارات على مدى سنيّ السجن.

لقد استقبل الشعب أبنائه وعاد للوطن رجاله الذين دخلوا السجن من أجل حرّيته، وكان الشعور عند الناس مفعماً بالأمل، فالأسرى كان منهم التضحية والعطاء، والشعب كان منه الوفاء، والوطن لا يشعر بدفئه إلا أبنائه.

وصلت بنا الحافلة إلى ساحة المهدي في بيت لحم، وتلفّت حولي بعد أن التحق الجميع بأهله، وإنّ بي أترقبٌ وحيداً من يغيث ملهوفاً يريد الوصول إلى بيته، وإذا بالأخ محمود عدوي في سيارته، ومعه الأخ محمود عميرة وأثنان من الذين خرجوا معنا من السجن، فرحبوا بي والفرحة تغمرهم، وسارت بنا السيارة في طريقها إلى صور باهر فأم طوبا، والعيزرية من بعد. وابتدأوا بي وقد آثروا أن يفرح أهلي بي قبل فرحة أهاليهم بهم. وطلبت منهم أن أترجل من السيارة قبل البيت بقليل، وحتى يواصلوا السير إلى قراهم وعائلاتهم التي طال انتظارها، وحتى لا يتأخر السائق محمود عدوي على أهله، وقد تعرفت عليه فيما بعد، ودخل السجن معنا سنة 1992، وشارك في الإضراب عن الطعام.

وما إن وطئت قدماي أرض القرية، والحارة التي شهدت طفولتي وميعة شبابي، وإذ بأخي عمر ينتظرنني بدموعه، والساعة تجاوزت العاشرة والنصف ليلاً. وتعانقنا بالأحضان، ثم سرت إلى البيت وقدماي ترتجفان، وعزيز على النفس هذا الحرمان، وهذا البعد الذي طال، ودام إحدى عشرة سنة كاملة، وصدري يضيق بحرمانني من ظلال الحرية على أرضي وبين أهلي. ووصلت البيت، وأول من استقبلني جدتي لأمي واسمها عسكرية، وعلا صوتها بالزغاريد تبدد هدأة الليل الساجي، ثم الوالد الذي قطع الأمل في عودتي، وقال لأمي: الحقي بولدك فقد غادر البلاد، واستقبلتني أمي، رحمها الله، رفيقة دربي، وابنتي فلسطين، وإخواني، وزوجي، ومن في المحيط من الأهل والأقارب، وتوافد الناس وما انقطع حبلهم، واستقبل الناس رمضان وأتاهم رمضان بهذا النصر العظيم، وبهذه الفرحة الغامرة، وبهذا الإنجاز الكبير... وتوافد الناس وقت السحور، إذ جاءني الشيخ كامل القاضي، والشيخ محمد حسين. وذهبت بصحبة الشيخ كامل لصلاة الصبح في المسجد الأقصى، وكانت بداية المشوار مع رمضان لأول مرة خارج السجن، بعد هذه السنين من المحنة. ولما قُضيت الصلاة رجعت إلى البيت لعلني أنال قسطاً من الراحة، وقد فاتتني ليلتان من النوم. وما إن وصلت وقد أعياني التعب، حتى ألقيت بنفسي على الفراش، وذهبت في نوم عميق، وبعد أن أخذت قسطي من الراحة، استيقظت مع الظهر لاستقبال المهنتين.

عودة إلى الصفقة التي طال الحديث عنها، وهي تستحق كل هذا الإطراء، حيث أطلق سراح الشيخ أحمد ياسين، وقد بشرته بذلك ونحن في ساحة السجن، وقد تأخر اسمه عن القوائم الأولى؛ لأنه لم يمرّ على حبسه واعتقاله سنة، ولم يرفع اسمه مباشرة، فصدر الحكم ضده 13 عاماً، أمضى منها أقل من سنة. شملته الصفقة ولم تشمل مجموعته التي حضرت إلى عسقلان فيما بعد، وحافظت على الجماعة التي تهلّل موقفها بعد أن أفرج عن شبّانها. وفي هذه الصفقة أفرج عن المقاتل الياباني كوزو أو كاموتو Kozo Okamoto، والذي نزل بسلاحه في مطار اللد، في صبيحة يوم 1972/5/30، وأطلق الرصاص على كل من كان في قاعة المطار، وقتل ستة وعشرين من الصهاينة، منهم عالم ذرة، وهو أخ لرئيس دولة الاحتلال.

Sidi 'Umar: The Memoirs of Muhammad Abu Tair About Resistance and His 33 Years in the Israeli Jails

هذا الكتاب

يسجل هذا الكتاب ذكريات مسيرة طويلة لشيخ مجاهد، وشخصية إسلامية وطنية، برزت في سبعينيات القرن الماضي كأحد رموز المقاومة من أبناء حركة فتح. ثم أصبحت أحد أبرز مؤسسي الجماعة الإسلامية وحركة حماس في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

في هذا الكتاب، يشرح الشيخ محمد أبو طير تجربة 33 عاماً في سجون الاحتلال، ومواقفه ومواقف الحركة الأسيرة من القضايا الوطنية وهموم الأمة المختلفة. ويسجل جزءاً مهماً من تاريخ الأسرى في سجون الاحتلال، وخصوصاً أسرى حماس، وما رافق ذلك من معاناة في السجون ومواجهات مع السجناء. كما يتعرض لعلاقات أسرى حماس بالأسرى من باقي الفصائل الفلسطينية، وما رافق ذلك من حالات تعاون أو شدّ واحتكاك.

وتبرز في هذه الذكريات جوانب من تجارب العمل العسكري المقاوم الذي خاضه أبو طير من خلال فتح، ثم على مدى زمني أوسع من خلال حماس. بالإضافة إلى تجربته في العمل السياسي، وانتخابات المجلس التشريعي للسلطة الفلسطينية.

ويسر مركز الزيتونة طباعة هذا الكتاب الذي يخط شهادة وحكاية الشيخ أبي طير، شيخ بيت المقدس، الذي عُرف بين إخوانه بـ"سيدي عمر"؛ ليكون أحد أهم ما صدر من كتب في تجربة الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

ISBN 978-9953-500-62-1



9 789953 500621



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations

ص.ب. 14-5034 بيروت - لبنان

تلفون: +961 1 803 644 | فاكس: +961 1 803 643

info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net

